قصة قصيرة

«أبواب مفتوحة»

عبدالستار ناصر

• «دليلٌ واحد على كوننا متحضرين، هو أننا لا ننتزع من المجانين حياتهم». (أميل بونتيش)

ها أنت الآن بين ممرين لا ثالث لهما..

وحدك منذ أتيت هذا العالم ـ كنت ـ بين ممرين لا ثالث لهما: النساء والخوف!

* * *

بيتٌ مزحوم بالزفير، جدران وذكريات وأسماء سمينة، ضحكة امرأة تشبه الصراخ، تتناثر في زوايا البيت ما أن ينزل فيه «زبون» ثري...

شهيق مزحوم بالعهر، دخان السجاير ودخان الشهوة يمتزجان تحت سقف واحد.. ونساء موشومات بحروف وأرقام وثياب ملونة، لا يعرفن سوى شبق الرجال، بيت مزحوم باللهاث، والليل يطول بلا حساب سوى حساب الدنانير، تصعد وتصعد، حتى صارت جبلاً لا يوازيه طولاً أيما جبل في الكون، ولا توازي رائحته القوية إلّا رائحة السجون!

* * *

وحدي في هذا البيت، لا أعرف وجه أبي، إنني حفنة من حيامن بيضاء لزجة، رماها رجل عابر، أو وزير ملفع بعباءة، أو قواد كان يسرق أُمي ويسلبها الجسد الحلو والنقود في وقت واحد..

اسمي بلال، محروق الوجه والنفس معاً، مهمل في شعاب البيت، أرى في اليوم الواحد عشرات الثغور، يدخل فيها مئات الرجال.. بين غرفة وغرفة أحسّ بشيء من الحرارة والخوف، لكنني ـ رغم عمري الذي صار فوق العشرين ـ عاطل عن الصراخ، لا لسان لي ولا عين ترى، فقد تعلّم رأسي على الرضوخ لكل ما يرى، وعلى الصمت أمام هذا الخراب الذي لم أفهمه حتى وأنا فوق العشرين من العمر!

بـــلال..

شيء يشبه الشتيمة، هو اسمي، أعرف الحروف وأنطقها ـ مع نفسي ـ وأضحك منها.. الباء بلاء، واللّام الأولى ليل لا نهاية له، وهذا الحرف الثالث أخافه ويخاف مني، فهو الساتر الوحيد بين الليل واللعنة التي صارت سيدتي منذ ولادتي!

مزحوم بحروف اسمي، تعلّمتها في هذا البيت، كانت أول من نطق بوجودي، ولولا اسمي، كيف لي ـ وأنا أضعف مخلوق في هذا القرن البشري ـ البوح بما أريد أو البوح بنصف ما أريد، وهل كنت أريد سوى الطعام والنوم في هذا البركان الذي لم يهدأ منذ ولادتي!

* * *

الأبواب كلها مفتوحة على أجساد عارية لدنة، لا مكان ـ هنا ـ لجسد مريض أو جسد عجوز أو جسد منهك، أمي وحدها مَنْ بقيت في هذه الغابة التي تحرق أشجارها بنارها، ورغم صفات أمي التي لا يريدها أحد، فهي ما زالت ـ ربما لأنها ذكية وتفهم آفات الناس والزمن معاً ـ راسخةً بين جدران البيت وفوق أساسه المتين، الذي يمتد من مراكز الشرطة إلى مراكز البطرين المزحومين بالدنانير والقرف..

لم يقترب أيّ رجل منها، ربما منذ عشر سنين أو أكثر، لكنها تزداد سمنة ومالاً وخشية من الله الذي نسيته طوال عمري وعمرها.. أيّ ثراء فاحش هذا الذي سقطتْ تحت ملايينه وحيرته وسطوته التي لا حدود لها؟ إنها بعد آلاف الليالي وبعد ملايين الحيامن الرخيصة التي تسربتْ بأجرة غير مقطوعة والتي سقطتْ من وجوه بلا هوية ومن أجساد لا أسماء لها، لم تعد تدري ما نفع

هذه التلال من الدنانير، وماذا تفعل بها امرأة لا شيء عندها سوى ولد واحد «لا تحبّه» ومستقبل معتم منكسر مثل سراب يمتد ويمتد بلا جذور وبلا فروع!

أنا الولد الذي لم يحبّه أحد حتى أُمه، وهي الجذر الوحيد في هذه الدنيا، ساقط من شجرة لا فروع لها، تائه في غابة من دنانير ليس لي منها حتى درهم واحد، مهمل بين شعاب البيت مثل قطعة خشبية تساهم في ديكور البيت، فقط!

محروق بين الجدران، ليس لي سوى زاوية واحدة أركن إليها، وليس لي أيّ حق في هذا البيت الكبير سوى حق «الموافقة» على البيع والشراء، ممسوخ منذ طفولتي، لا صوت ولا إحساس لي سوى صوت العائلة وإحساسها..

في أول ليلة من رمضان نسيت نفسي، وقلت:

ــ هل سنغلق البيت في رمضان؟

بعدها ــ وهذا ما جرى قبل خمس سنوات ــ لم أنطق بكلمة، ليس من السهل نسيان العدد الهائل من أحذيتهن وهي تسقط فوق رأسي، إنهن يبصقن في وجهي، كمن يقذف بشيء زائد في سلة القمامة..

وهل كنت أكثر من سلة عتيقة يقذفن فيها ما يزيد من كيمات العادة وأوراق الكلينكس الملوثة بالجروح والحيامن؟ لم أكن غير هذا بالنسبة لمن يبيع ولمن يشتري، إنني مجرد شيء بساقين يشتري حاجات المنزل، وينام!

كيف استيقظ أول إحساس في عروقي؟ لا أتذكر.. نزل على رأسي حذاء إسراء وماجدة وهيفاء ونورا وسناء وبلقيس وصباح وإنعام ولم أعترض.. كانت شيماء وندى وكريمة يفتحن أفخاذهن بحضوري وكأنني لست من لحم ودم.. بل رأيتهن تحت أجرام الرجال عشرات المرات ولم يشعرن حتى ببريق عيني أو لهاث جسدي.

إنني لا أساوي أيّ شيء، هكذا بدأتْ أول شرارة في جسدي، إنني مجرد شهيق وزفير لا يسمعه أحد ولا يلتفت إلى نبضات قلبه أحد، حتى المرأة التي تملك البيت ويطلقون عليها «أم بلال» نسيتْ من يكون هذا البلال الذي حملته تسعة شهور ورمته مثل حشرة تافهة!

قال لي زبون نحيف، هو الوحيد الذي سمعت صوته طوال عمري معهم:

ــ ماذا تفعل في هذا البيت الفاسد؟

كانت كلمة «فاسد» أول كلمة ينطقها بشري طوال السنوات التي مرّت على حجزي في هذا المأزق البشري.. لم أفرح، لم أحزن، كنت بلا مسامات وبلا هواجس وبلا شهيق، ماذا يريد هذا الكائن الذي يأتي كل أسبوع ويضاجع من يشاء ويذهب دون حياء؟ لكنني ــ غريب ما يدور ــ سمعته يسألني ثانية مثل حاكم في جزيرة مهجورة؟

ــ ما بالك أيها الأسود؟ قلتُ لك ماذا تفعل في هذا البيت القذر؟ ألا يعجبك وجهي؟

نظرتُ إليه، هل يمكنني ــ فعلاً ــ أن أحدّق في وجه أحد منهم أكثر من دقيقة؟ لكنني ــ هي الشرارة التي شعرتُ بها لأول مرة ــ نظرتُ إلى عينيه ما يزيد على دقيقة واحدة، وقلتُ له بعد صمت عجيب قاهر:

ــ أنا بلال، أنا ابن السيّدة التي تملك البيت.

وأيضاً، لا بد من القول: إنني سمعت ضحكته تحفر البيت من أساسه وتنتشر في شعابه وانحناءاته وهو يصرخ في وجهي:

ــ يا ابن القحبة، من ينظر إلى عينيك يعتقد أنك واحد من الملائكة.. ولماذا تنظر إلى وجهي كل هذا الوقت وأنت ابنها أيها السافل؟ لعنة الله عليك.. كنت أظنك مجرد خادم في البيت، لكنك أقذر من فيه!

* * *

كنت أقذر من في البيت ــ حقاً ــ هل يمكن أن تنزل السماء فوق هذا البناء الفاحش وتهدم النفوس التي تلهث تحت فراشه ليل نهار؟ إنه بيت محروس برجال الشرطة ومحروس بالرشاوي والضحكات العاهرة..

هي الشرارة التي أشعلتني، والتي بعدها «رأيت»!

خرجتُ من البيت، أعرف أن لا أحد يسأل عني، ذهبتُ إلى الشوارع تمتد بي وأمتد بها، جلستُ في المقاهي وشربت الشاي، مجرد وجه عابر لا يلتفت إليه أحد.. كان عندي من النقود ما يكفي سنة، لكنني بكيت على نفسي وعلى نوع الدم الذي يسري في جسدي!

وقبل أن ينتهي النهار رجعتُ إلى المجزرة.. لم يسألني أحد، ليس من امرأة أو رجل في عمق البيت يعرف ما جرى.. إنني الحشرة التي تمشي فوق الجدران.. العنكبوت الذي يمد ذراعيه بين الزوايا ولا يعني أيّ شيء!

صرخت..

عفواً، لم أصرخ..

قلت في ذات نفسي: لا بد أن تشعر أُمي بوجودي، أنا الوحيد الذي أنجبت، والوحيد الذي يملك ما تملك من دنانير وعقارات وذنوب!

صرخت..

نعم، كنتُ أصرخ في البيت لأول مرة في حياتي ورأيت ــ كما هي العادة ــ عشرات الأفواه تبصق في وجهي، وأشياء ثقيلة تسقط فوق رأسي بلا أي إحساس بهذا السائل الأحمر الذي يسيل على أنفي وخدودي وإنسانيتي..

قلت في ذات نفسي، وأنا أبكي:

ــ عليك أن تختار يا بلال.. بين حمار مذموم، أو رجل صار فوق العشرين..

* * *

أية ليلة غريبة مرت على جسدي وأنا ملفوف بالنار، تنهش جلدي سياط الذعر والقرف.. من الذي أغلق نفسي وجعلني دون هواجس ودون مجسّات ودون عقل!؟

خرجتُ من الغرفة في الثالثة صباحاً، بينما النار ما زالت تلتهم زغب مساماتي وتحرق الهواء الذي يمر حولي.. بكيت بلا دموع على هذا التافه المسكين المركون الذي اسمه «بلال».. كان البيت يموء حتى الثالثة بهسيس هيفاء ونورا وبلقيس وإنعام.

نظرتُ إليهن من خرم المفتاح، كان المفتاح في مَكانه من الداخل، يمنعني من رؤية الزبائن، تسلقت بعض خصاص النوافذ ورأيت!

ولأول مرة، ربما منذ سنين طوال، شعرتُ بشيء في جسدي يشير إلى رجولتي.. كنت أريد شيئاً لهذه النفس المحرومة، أنا ابن سيدة البيت ومن حق هذا الجسد أن يفعل ما يشاء في هذا المكان المزحوم باللّهاث والملابس الداخلية المنزوعة..

اختلط حقدي بشهوتي، صار الغضب العتيق ينمو بطريقة غريبة، لم أصدق ما جرى، لكنني بدأتُ أفكر في حلّ لهذا الخراب المزدوج الذي يصعد ويهبط في أمعائي والذي بات يقتلني دقيقة بعد أخرى.. أنا بلال ابن سيّدة البيت، أعرف أن ما تملكه أُمي لا يستحقه سواي.. نعم، لا يستحق مجدها كله ودنانيرها وعقاراتها وكيلوغرامات الذهب التي تكنزها، إلّا بلال.. هذا الحمار المذموم الذي صار فوق العشرين ولم يلتفت إليه أحد!

أية ليلة قذرة، تلك التي زارني فيها الشيطان، وتجسّم في المرآة المثلومة التي أرى نفسي فيها كل يوم؟ هل ترانا نحسب الزمان بالسنوات أم نحسبه بما يجري في تلك السنوات؟

حياتي لم تبدأ إلّا في تلك الليلة..

ومنذ الليلة نفسها، مات بلال الذي كنت أعرفه طوال عشرين سنة.. مات ولم يبق منه سوى اسمه فقط..

* * *

في الثالثة من صباح الخميس، كانت بلقيس ــ كما في كل مرة يمتطيها رجل مسنّ غني ــ تصرخ وتلهث وتعوي وتشهق وتصارع أنوثتها حتى يشعر المسنّ الغنيّ بالرضا والفحولة.. وكانت هيفاء ــ يا لها من غبية شرسة ــ تتعرى في حضرة جندي فقير لا بد أنه سرق طعام الجنود حتى يتمكن من شراء هيفاء ليلة واحدة.. وكانت تفعل ما يشاء، إذ من يدري، ربما يموت غداً برصاصة طائشة وتكون ــ هي ــ آخر امرأة رآها.. كانت هيفاء المومس التي تحب الناس وترى نفسها منذورة ــ فعلاً ــ لسعادة البشرية كلها..

أربع غرف فقط، كانت تلهث في آخر الليل، لكنني رأيت إنعام تغلق باب البيت بنفسها خلف زبونها النحيف الذي خرج وهو ينظر ذات الشمال وذات اليمين، كمن يرجو الله أن يراه أي صديق حتى يقص عليه مغامراته ومجونه في آخر الليل.. لكن الشوارع مغلقة كلها، ليس من صوت يموء ــ كما القطط ــ سوى صوت نورا، أصغر البنات في البيت، والتي طال انتظارنا اليوم الذي تنام فيه تحت رجل!!

النار تتسرب من غضاريف رأسي، وتسري في كل جزء من هيكلي، لم يكن من أحد يدري بهذا المخبول الذي ينتقل من غرفة إلى غرفة ومن رعشة إلى رعشة، كنت أريد إنقاذ نفسي من هذا الخراب المزدوج: شهوتي وحقدي.

ولم يكن عندي سوى حلّ واحد..

رفعت واحدة من سكاكين المطبخ، كان عندي ما يكفي من الوقت أن أختار أطول سكين، مدببة مثل نهاية دبوس، ثم تتسع وتتسع حتى مقبضها الخشبي الذي صرت أمسكه بأعصاب تمساحية، لست أدري من كان يمسك الثاني حقاً، لكنني مشيت بأعصابي ورعشة قلبي ورذالة الماضي وبصاق إسراء وماجدة وسناء، كنت أمشي ــ مثل ديك مريض ــ وأنا أتذكر كل حذاء سقط على قمة رأسي، وجه شيماء وكريمة وصباح.. كنت أمشي..

صار بيني وبين سرير أُمي، متر واحد، نظرتُ إليها تحت ضوء خفيف كانت تنام تحت رحمته، ولم أحسّ بأي شيء، لست ابنها، هذه امرأة لا أعرفها مطلقاً.. أُقسم بالله أن بلال ليس ابن هذه السيدة الوقور، حتى أنني لم أقل لها «ماما» ولم أسمعها تنطق «ابني» منذ ولادتي!

كان بيني وبين هذه المرأة مسافة طولها السكين التي أحمل، نظرت إليها بهدوء، كان عندي من الوقت ما يكفي، أغلقت باب غرفتها واقتربت منها، ثم غرزت السكين مرة واحدة، كنت أخاف أن تصحو.. طعنتها مرتين، لم تصرخ، لم أسمع أيّ أنين، لكنني

كنت أخاف أن تستيقظ على صوت نزيفها، غرزت السكين ثالثة.. وخرجت!

* * *

ما زال هسيس بلقيس يملأ نصف البيت، وبقايا مواء نورا لم ينقطع منذ نصف ساعة.. ليس من شيء غريب، غسلت السكين وشربت كوب ماء بارد وذهبت إلى غرفتي..

ثم..

انقلب العالم في يوم واحد، كنت أرى ما يدور بعين ذئب جائع مفترس، لكن العالم كان قد انقلب حولي وصرت بين ليلة وضحاها: السيد بلال، وصار اسم البيت: بيت بلال..

لكنني لم أضحك بعد!

* * *

أنا الوحيد الذي لم تسأله الشرطة عما جرى وكيف جرى، كنت الوحيد الذي ما زال مثل حمار مذموم رغم الملايين التي صارت من نصيبي وحدي!

كان هذا في البداية.. تعلمتُ أن البداية لا قيمة لها، وانتظرت أن يهدأ الدم وتسكت النفوس.. عندي متسع من الوقت..

نظرت إلى نورا، أصغر البنات، وفكرتُ أن تكون أول «أنثى» أنام تحت لحافها وفوق جلدها الأبيض الذي لم يستخدمه إلا رجل واحد فقط!

كنت أخاف، ــ حتى الآن ــ فرض أوامري على أية واحدة من بنات البيت، كل العيون تتربص بي وتريد أن تفهم سرّي وماذا تراني سأفعل بالكنوز التي تركتها أُمي؟ رغم هذا لم تتجرأ أية سافلة منهن على احتوائي أو التقرب مني.. هناك مؤامرة في البيت ضدي، شيء لم أفهمه بعد، رغم أنني بدأت ــ فعلاً ــ أتصرف بأموال أمي على مزاجي..

أعرف أن أي انتقال في عاداتي لن يناسبني اليوم مطلقاً، وإنني بحاجة إلى عام أو عامين وحتى ثلاثة، حتى يجف الجسد الميت ويتغيّر بعض رجال الشرطة الذين يزورون البيت، وقد أحتاج إلى طرد بعضهن أو تدبير حلّ تذوب به الهواجس والشكوك.

لكن ماذا أفعل مع حقدي وشهوتي، وكل آفة من آفاتي تزداد اشتعالاً ورعباً في ممرات جسمي؟ إن أية جريمة ثانية ستكون السبب في كشف ما فعلت وأي قرار أصرخ به في البيت سيكون أحسن إشارة إلى عقلي الذي قطعوه عني طوال وجودي!

ماذا أفعل معهم؟

ماذا أفعل معهن؟

ذهبت إلى أفضل نجار في المحلة كلها، جاء معي إلى البيت، رأى غرفتي، ثم انقلبت تلك الغرفة بين ليلة وضحاها إلى جنة صغيرة.. ثم اشتريت أغلى وأجمل فراش في الدنيا، بل غيّرت صبغ الغرفة وبابها وتبدل قفلها ومفتاحها وجعلت هذا المكان البائس قطعة من الفردوس الذي كنت أحلم به!

كل هذا التعب الثمين لم يفعل أيّ شيء في أرخص بنات البيت، قالت صباح:

ــ إنه مسكين، لا يعرف أن كل ما يفعله لا يساوي أجرة ليلة واحدة مع (برغوث)!

لم أكن أدري إن كان «برغوث» مجرد صفة أم هو اسم زبون يأتي في آخر الليل.. لكنني شعرت بالذعر حقاً وأنا أصغي إلى كريمة التي قالت بصوت مسموم:

ــ إنها نقود أمه، ومن حقه أن يفعل فيها ما يشاء، مال الحرام يذهب في الحرام.

كنت أغرق في شبر من الماء.. ماذا يفعل إنسان مثلي بلا تجربة وبلا حكمة وبلا ذكاء وبلا قوة؟ كان صوت إنعام يذبحني من الوريد إلى الوريد وأنا أسمعها تقول بحنجرة داعرة:

ــ لو أعطاني أموال قارون فوق أمواله من أجل ساعة واحدة فقط لن أفعل.. ليس عندي أي شعور برجولته!

لم يكن موت أمي ولا إرهاق جسدي ولا الذعر الرهيب الذي أعيش، لم يكن كل هذا يكفي حتى مجرد ليلة واحدة مع نورا أو شيماء أو ندى.. إنهن يكرهن وجهي واسمي وينتظرن الوقت الذي أموت أو أقتل فيه!

في منتصف الليل كنت أسمع صوت نورا ــ أحبّ من أحببت في هذا البيت ــ وهي تقول للرجل الثاني الذي تنام معه:

ــ هذا البيت يملكه قرد أحمق اسمه بلال، كل واحدة منا تفكر في قتله، هل يمكنك قتله وأعطيك جسدي ــ سنة واحدة ــ مجاناً بلا ثمن!؟

* * *

في تلك الليلة بكيت، نسيت أموالي والذهب المخزون في غرفتي، كان يكفي نورا أن تعرف بعض أسراري وبعض حبّي حتى تسلب مني كل ثروتي.. لكنها اعترفت تحت جرم زبون عابر بهذه الرغبة الرخيصة في أن تراني مقتولاً ومهملاً مثل كلب أجرب!

لم يكن من شيء أفعله في آخر الليل، غير أن يصغي قلبي لكل عاهرة في البيت، لم يجرحني كلام شيماء وهي تضحك مني وتقول:

ـ إنه مجرد إنسان بائس، لا ذنب له، فقد أهمله كل أهل البيت بلا سبب!

ولم ألتفت إلى همس ندى وهي تردد مرتين:

ـ هذا مجرد ولد مخبول لا أفكر فيه حتى وأنا في المرحاض!

بل أسعدني ما روته إسراء وهي تلهث تحت رجلين في آن واحد عندما قالت:

ـ من يدري سرّ هذا القرد المضحك، ربما كان رجلاً يملك ما يملكه الرجال!

لكنني رغم الشبق المرّ الذي احتواني ورغم الجراح التي ازداد عمقها في جسدي، جئت غرفة هيفاء ـ قديسة المنزل ـ وتمنيت أن أنام على فراشها، وأن أبكي على يديها قبل أن أسمعها تقول:

ـ ليس من السهل أن يفكر فينا، كل واحدة منا ضربته على رأسه وبصقت في عينيه وحتى إن كان عقله عقل حمار، لا أظن بأنه سيفكر فينا، إنه مسكين لا يعرف حتى كيف يختار البنطلون الذي يناسبه!

ماذا يعني كل هذا؟

إنني «مذبوح» بهذا الكلام الذي أسمعه ليل نهار، ولست أدري كيف أبدأ بين هذا النوع من النساء؟ أنا مجرد طفل ممسوخ جاهز للضحك عليه حتى بدون سبب.. هذا ما سمعته من بلقيس وجهاً لوجه كمن تريد أن تقول لي:

ـ وماذا تعني أموال أمك إذا كنت أنت أقذر منها؟

ماجدة وحدها التي قالت:

ـ لا أريد أن يموت كما ماتت أمه، كلاهما تعذب في حياته وليس من حق أحد أن يلوم هذا المسكين!

سبحان الله!

كيف أبدأ مع هذه الحفنة العجيبة من النساء؟ إنني ـ رغم الصفات كلها ـ مجرد إنسان تافه لا قيمة لي بينهن.. وإذا كان لا بد من بداية فهي تحتاج إلى بدايات عسيرة حتى أصل البداية التي أريد!

لكن المعجزات ما زالت في يد البشر.. أو هذا ما شعرت به وأنا أسمع صوت سناء وهي تدور حول هيفاء وإنعام وكريمة وتقول بما يشبه السحر:

ـ لماذا لم نفكر حتى الآن أنه الوحيد الذي يملك هذا البيت وأنه ليس مذنباً في أي شيء.. لماذا لم نتقرب منه ونرحمه من آلامه بعد موت أمه.. هل فكرنا بما يعانيه هذا المسكين أم أننا قررنا تركه ونكرانه حتى بدون سبب معقول؟!

جمعت الكلام الذي سمعته من بنات البيت، ورميته في خندق مظلم من نفسي «مال الحرام يذهب في الحرام» لكنه ما زال يرجع مثل صدى يضرب رأسي «كل ما يفعله لا يساوي أجرة ليلة واحدة مع برغوث» يتكرر حرفاً بعد حرف، يأتي في الكوابيس ويمشي وراء زبائن هذا البيت «ماذا تعني أموال أمك إذا كنت أقذر منها؟» يلتهم الصبر حقدي وشهوتي، كنت أسمع كل مسامة وهي تكرر مثلهن:

ـ إنه مجرد إنسان بائس..

كيف ـ إذن ـ أحارب هذا البؤس الذي زرعني وأثمر في عروقي منذ طفولتي؟ إنها حالة في الوجه، في تركيبه منذ نعومة أظفاري، إنني أفهم كل ما يدور وأعرف كل شيء، لكنني مهشم النفس والقلب معاً، وهذا ما يجعلني دون ما يشتهون!

وقفت عند سناء، وبدأتُ أفكر في كلماتها، هي وحدها التي قالت: «نرحمه من آلامه».. وقالت «ليس مذنباً».. وقالت أشياء كثيرة ليس من السهل أن تسمعها النفس..

هل تراها قادرة على مسك خيط واحد من خيوط عذابي أم أنها ـ مثل سواها ـ لا ترى في وجودي غير حمار عليه بردعة من ذهب!

جئت إليها، اقتربت منها، وقلت لها:

ـ هل يمكنك ترك عملكِ هذا اليوم؟ عندي كلام كثير وليس من أحد يصغي!

نظرتْ سناء في نصف وجهي، في حريق وجداني وقالت:

ـ ماذا تريد أن تقول يا بلال؟

كررت عليها أن تترك العمل، نصف يوم أو ربع يوم فقط ـ على حسابي ـ لكنها ضحكت بعهر لذيذ وهي تقول:

ـ نصف يوم يا بلال، يساوي عشرة رجال، بل وأكثر.. والرجل الواحد يعطي خمسة وعشرين ديناراً، يعني نصف اليوم يكلفك بحدود ثلاثمائة دينار (بس)!

قلت بسرعة:

ـ خذي ألف دينار يا سناء.. ألف دينار وتعالي نتكلم ربع يوم فقط!

مدت يدها وهي تهزّ جذعها وتردد:

ـ إذا كنت تريدني في غرفتك يا بلال، أنا جاهزة جداً.. لكن هات الدنانير وقل ما تشاء وافعل ما تشاء!

اهتز جسدي، شعرت بحاجة غريبة إلى النوم، ماذا أقول لها؟ لقد قالت سناء كل ما تريد أن أقول، ولم يبق من شيء سوى توفير الفلوس ـ وهي بين يدي ـ وأنقذ نفسي من أخطر آفاتي!

* * *

جلستُ على أرض البيت..

لم يعد في جسمي من عصب حيّ سوى رغبة هذا الجسد المذبوح، كانت سناء تضحك مني وهي تمد يديها ترفعني وتقول:

ـ إذهب إلى غرفتك.. سأكون معكَ بعد نصف ساعة، أُريد أن أرى ألف دينار على فراشك يا بلال..

مشيتُ ـ مثل جثة ـ إلى غرفتي، لم أكن أعرف ما سأفعل معها، لكنني غفوت على سريري وشيء مثل الدبيب يتسلل في غضاريفي كلها!

مرت سنوات وأنا نائم مثل بغل على فراشي، ليس من أثر أو شهيق في غرفتي، لا أعرف كيف يمر الزمان، لكن سناء لم تطرق بابي، نظرتُ من وراء نافذتي ورأيت رجال الشرطة ينحشرون في لحم طازج لذيذ، لكنني لم أستطع الوقوف داخل هذا القبر الذي اسمه غرفتي..

خرجت مثل قواد، أدور في ممرات البيت، أعرف أنهم يضحكون مني، تعلّمت على هذا النوع من الضحك الممزوج بالحقد والقرف.. لكنني رحت أبحث عن سناء، حتى رأيتها في غرفتها، وحدها دون أنيس ودون زبون.. كنت أريد الدخول عليها، لكنني سمعت من يقول:

ـ هذه الحشرة بدأتْ تفكر في مغازلة النساء!

ماذا جرى؟

لم أعرف من كان يشتمني، لكنه صوت رجل، ونحن في البيت بلا رجال سوى من يأتي ويضاجع البنات ويمضي! كيف بات البعض من هؤلاء الزبائن يقذفني بالشتائم ولماذا؟

دخلتُ غرفة سناء كمن ينتحر، نظرت إليها وسألت:

ـ ماذا حدث يا سناء؟

لكنني قبل أن أصل قرب فراشها، بل قبل أن تكون حروف اسمها قد جاءت على لساني كلها، رأيت نفسي مرمياً مثل نعال خارج غرفتها، ولست أدري من الذي راح يضربني ويبصق في نصف وجهي وهو يصرخ بي:

ـ يا ابن القحبة، إذا رأيتك معها ثانية، سترى نفسك في قبر أمك فوراً.

في تلك الدقيقة، انقلبتْ غرائزي على ركود نفسي، وتضاعف جبروت الحقد في قلبي حتى صار جلدي يتبرأ من جلدي.. إنني أملك البيت ومن فيه، كيف يضربني مجرد رجل من خارج البيت مهما كانت قيمته وثروته ونفوذه وسلطانه؟!

رفعتُ رأسي ـ لأول مرة في حياتي ـ ونظرتُ إليه، كنتُ أريد أن أفعل شيئاً يجعلني أكبر من مجرد قرد وأكبر من حمار مذموم وأكبر من (ابن قحبة) يضربه من يشاء ويضحك منه أي عابر ثري!

هل حدث كل هذا صدفة؟ مطلقاً..

إنني أهدم عمري إذا تهدمتْ هذه الشهوة التي خنقتني.. كيف أحدق في وجه سناء وماذا سأقول؟ هل أعطيها المزيد من النقود حتى تقنع بهذا الجبان المركون مثل نفاية؟

وقفت على رجلي، يبدو أنني طويل، وهذا ما انتبهت إليه وأنا أضرب الرجل الذي كان يشتمني ويهزأ مني، ضربته برأسي على بطنه بكل ما يملكه جسدي من قوة.. وبعد أقل من ثانية باهرة من عمر الزمان كان هذا الرجل العنيف قد سقط أرضاً وليس من أمل في نهوضه قبل يوم آخر..

* * *

عندها رأيتُ نفسي داخل حلقة من بنات البيت وزبائنه وهم ينظرون إلى وجهي.. لا بد أن العالم تغيّر فجأة، فقد كانت (بلقيس) تبتسم في وجهي، أما سناء فقد خرجت من غرفتها وهي تردد بصوت قوي:

ـ يستاهل.. لا نريد أن يدخل دارنا بعد هذا اليوم!

ومثل طفل غبيّ رحت أنظر إلى سناء وأنا أقول:

ـ هل أقتله يا سناء؟ هل أقتله يا سناء؟

من أين لي ـ وأنا المركون منذ بداية الزمان ـ أن أعرف الفرق بين من يضحك لي ومن يضحك مني؟ لست أفهم ـ حتى الآن ـ ما تعنيه ضحكة إنعام وهي تقول:

ـ من أين أشرقت الشمس هذا الصباح؟

كذلك لا أدري لماذا ضربتني كريمة على يدي وماذا تعني بقولها:

ـ هذه بداية جيّدة للتشرد والبهدلة!

نظرتُ إلى إسراء وماجدة، ثم إلى هيفاء ونورا، ماذا جرى؟ أيّ لغز وراء هذه النفوس المغلقة التي تمارس الجنس ليل نهار منذ زمان صار بلا زمان!؟

هل كنت على حق فيما فعلت؟ قالت شيماء بصوت داعر لذيذ يشبه صوت أمي أيام طفولتي:

ـ بطل يا بلال، هذا جزاء الخونة.

كانت تهزأ مني، هي وحدها التي شعرت بما تريد أن تقول.. ثم عفطتْ في وجهي وأعطتني ظهرها بطريقة ماجنة فهمتُ منها أن جميع من في البيت يسخرون مني إلاّ سناء التي كررتْ كلامها مرتين وهي تبتسم ثانية في وجهي:

ـ أنا سعيدة بما فعلت يا بلال.. ربما يقتلك هذا الرجل غداً أو بعد شهر.. لكن ما فعلته كان رائعاً فعلاً..

من هو، هذا الرجل الذي يشبه الفيل، هذا الذي صار قرب أحذيتنا؟ وهل سيقتلني حقاً؟ أنا أملك البيت، فهل يملك هذا الرجل الحق في قتلي.. بدأتُ ـ فجأةً ـ أحسّ بالخوف، وامتد الخوف بي وصل إلى قلبي.. وأخذتُ أشعر بهذا النبض السريع!

رغم هذا، كان الشبق المجنون الذي تسلقني، يأخذ شكلاً مختلفاً، هو أقرب ما يكون إلى السرطان الذي يسري من نقطة صغيرة ثم ينتهي بموت قذر.. وهذا الرجل ـ الذي قد يقتلني غداً ـ ليس أكبر من رعب شهواتي وأنا لم أحقق منها أيّ شيء بعد!

* * *

في منتصف الليل.. وهم ينقلون الرجل إلى بيته، ذهبتُ إلى سناء في غرفتها، لم تكن ليلة عهر كبقية الليالي، فقد أغلقنا باب البيت وتركنا إشارة حمراء يعرفها الزبائن، يفهم من يراها: أن لا عمل الليلة!

قالت سناء:

ـ ماذا بك يا بلال؟

لا أدري لماذا تمنيت أن أبكي وأنا أقول:

ـ الفلوس معي يا سناء.

انقلبتْ ملامحها وهي تسأل:

ـ ماذا تقول يا بلال؟

لم أصدق أنها نسيت، لكن احتراق جسدي جعلني أكرر ثانية:

ـ ألف دينار يا سناء، كنت ستأتين إلى غرفتي قبل أن يمنعني هذا الرجل، تعالي معي وخذي ما تريدين..

ماذا جرى في تلك الدقيقة؟

إن أعضائي لا تملك القدرة على أيّ نوع من المفاجآت، كيف بي وأنا أسمع سناء تقول لي:

ـ حسناً، سأكون في غرفتك بعد ربع ساعة..

شعرت أن العالم يفتح يديه مرة واحدة ويمسك عضوي يباركه ويعلن عن رجولتي!

* * *

لملمتُ الدنانير، كانت تلك الأوراق تحترق تحت أصابعي لم يكن لها أية قيمة إزاء نصف ساعة مع هذه الصبيّة الطاغية.

مشيتُ على أطراف أصابعي، قلت لها: يا سناء، أنا الذي سيأتي إليكِ، كوني الملكة هذه الليلة، وأنا العبد المطيع!

مشيتُ على أطراف أصابعي، لم أطرق بابها، دخلتُ عليها بهدوء وبطء.. ورأيت!

أعرف المعجزات كلها..

يدهشني الرب إذا عصفتْ، وأخاف إذا أمطرتْ وليس في جسدي ما يجعلني أصغي إلى الرعد دون رعشة تهدم جسمي.. كل هذا بسيط إزاء ما رأيت، وأنا أدخل غرفة هذه الفيروزة التي تعرت على فراشها وصار بريقها أكبر المعجزات!

هل يملك الجسد البشري كل هذا السحر الذي غطّاني وصار يسلبني كل قواي؟ كيف أقتربُ منها، بل كيف اقترب منها الرجال؟ لكنها رفعتْ جسدها وجاءت تمشي، وكان أول شيء فعلته: إنها أخذت حفنة الدنانير وتركتها تحت الفراش.. رأيت النصف الثاني من جسدها حين راحت تخفي الفلوس، وشعرتُ أنني أجبن خلق الله في هذه الدنيا.

في أقل من دقيقة واحدة، كانت سناء قد أغلقت الباب، ومدت أصابعها إلى ثيابي، دون كلام، رأيت نفسي عارياً إلاّ من شهوتي التي اختنقتُ من شدة نفورها..

فتحتْ فخذيها، وقالت:

ـ هل تملك الكثير من النقود يا بلال؟

لم أكن أفكر في شيء سوى انكساري وأنا أحاول أن أفعل معها ما يفعله الرجال، لكن الوقت يمر بلا فائدة.. تمنيت أن تبلعني الأرض، قبل أن تدفعني سناء وهي تقول:

ـ ماذا دهاك؟ هل سأنتظرك حتى الصباح؟

كنت أعرف أنها لو انتظرتْ سنة أخرى، لن أفعل شيئاً، فقد انطفأ في رأسي ذاك اللهيب الذي جئت به، وصارتْ كل مسامة في جلدي تشكو من عجزي!

هربتُ من بين عينيها، ومن بين فخذيها، إلى غرفتي التي عشت فيها أحقر ليلة في حياتي.. ولم أعد أخاف أن يأتي هذا الرجل الفيل ويقتلني.. إنني على أية حال لم أكن رجلاً في أول مرة أنام فيها مع أنثى من لحم ودم!!

* * *

في الصباح، لم أخرج من غرفتي، كنتُ أعتقد أن بنات البيت سينظرن إلى وجهي باحتقار أكبر.. لكنني ما إن شعرت بالجوع حتى تسللت خارج البيت، ورجعت بعد ساعتين مثل فأر شبعان يبحث عن ثقب يدخل منه إلى جحره حتى ينام!

ثانية، كنت في غرفتي، وعند الثالثة بعد الظهر، كانت تطرق باب غرفتي، قلت «إنها سناء» واحترت في أمري: ماذا أفعل؟

قلت: من هناك؟

لم يكن من جواب، ركبني هاجس آخر: أن يكون الرجل الفيل جاء يقتلني.. ومسني الخوف، اقتربت من خصاص نافذة عالية أبحث عن الطارق، كانت سناء هي التي تقف عند الباب، وبسرعة فتحتُ لها الباب ودخلتْ.. كان أجمل شيء أسمعه منها أن تقول بضحكة طيبة:

ـ لا أريدك أن تخجل، هذا يحصل مع كل الرجال في أول مرة!

لكن الحقد على نفسي كان يسري مع نهر أحقادي على إنعام ونورا وصباح وعلى نساء الأرض منذ خلقن، لم أفهم كيف السبيل ـ وأنا الذي عجزت إزاء لحم سناء ـ إلى بقية البنات وهن يكرهن وجهي وينظرن إليّ نظرتهن إلى حمار مهجور مريض..

هل يمكن ـ في ليلة ما ـ أن أنام بين ضلوع بلقيس أو شيماء وهل أملك الحق في مغازلة إسراء وماجدة؟ إنني مجرد خادم رغم كل أموالي، أعني أموال أمي التي عافتها بين يدي.. لا هيفاء ولا ندى ولا كريمة ولا أية أنثى ستأتي إلى البيت يعنيها أمري..

إنني القرد الذي يضحكون إذا فات بينهم، والذي إذا ترك البيت نسوه تماماً..

نظرت في وجه سناء..

تمنيت أن أقتلها، رغم شهوتي التي ما زالت تشتعل تحت جلدي، لكنني قلت لها:

ـ أنا لا أحتاج إلى كلامك هذا.. أنا إنسان ميت..

لكنها اقتربت ـ فعلاً ـ ومدت يدها تقول بشيء من الحنان لم أعرفه في حياتي كلها:

ـ يا لك من غبي، تعال معي، ومجاناً بلا نقود، أنت لا تعرف ماذا يجري في هذه الحالات.. تعالى معي وتعلّم.

ذهبت مثل خروف، لست أدري ماذا جرى، لكنني دخلت في عالم ملون ليس من لون ثابت فيه، كانت النجوم تقترب مني وتباركني، وكانت سناء تلهث تحت عظامي، لم أصدق ما جرى، إنه مجرد حلم آخر سوف يمضي، لكن العالم الملون تكرر ثانية والنجوم صارت تباركني من جديد، وفي تلك الساعة شعرت أنني قادر على العيش بين آلاف النساء بلا أي حرج وبلا أي خوف!

أعطيت سناء مصحف أمي المرصع بالذهب، ثم رأيت نفسي أعطيها ـ ثانية ـ ألف دينار وأنا أرجوها أن تأخذها من يدي.. كان عندي من الفرح ما يكفي عشرة من الرجال، أُريد أن أصرخ وأرقص، لكن بلال الذي يكرهونه، ما زال ـ في نظرهن ـ ذاك الحمار المتروك رغم كل أكوام الدنانير وأكوام الذهب المكدسة في البنوك باسمي!

قلت لها:

ـ أنا أحبك يا سناء.

ضحكت وهي تمد يديها فوق كتفي، وقالت:

ـ كل من ينام معي يقول أُحبك، وينساني بعد ساعة واحدة!

ـ لكنني أُحبك فعلاً.

سمعتها تقول بذكاء عجيب:

ـ أنا أول بنت تنام معك، ستشبع من النساء بعد شهرين أو ثلاثة، وعندها ستعرف الحقيقة!

وهل تراني سأعرف غير هذا الشبق الذي يطاردني والذي يمشي موازاة حقدي على البيت وساكنيه.. كنت أريد أن أعترف لهذه الصبيّة اللذيذة بكل ما عندي من كنوز أُمي.. بل تمنيت أن أعترف لها بجريمتي، لكن الصدفة أنقذتني من غبائي حين راحت (صباح) تسأل عنها بصوتٍ عالٍ.. نظرتُ إليها وهي تذهب، وقلت في ذات نفس:

ـ ما هذه المتعة التي نزلتْ من السماء؟

لكن المتعة التي نزلت فوق رأسي من السماء، صارت هي اللعنة التي تمزقني وتبعثرني.. فقد بدأتُ أراقب الرجال الذين يأتون البيت ويسرقون المتعة نفسها من جسد سناء وغيرها.. ماذا تراني أفعل معهم وهم أقوى رجال المحلة ومن أبرز الرتب العسكرية؟!

كل هذا بسيط ومعقول.. لكن ظهور الرجل الفيل في أول المساء، جعلني ـ دون وعي مني ـ أحمل سلاحين في وقت واحد، سكين أخفيتها بين ثيابي، وحقدي الذي صار أكبر آلاف المرات وأنا أفكر: إنه احتواها بين فخذيه ومرَّ على مسامات جلدها كما فعلتُ أنا البارحة!

سمعته يسأل مثل ثور مجروح:

ـ أين هذا الكلب المسعور؟

امتد الصمت في زوايا وانحناءات البيت، لم يكن من جواب، لكنه اقترب من باب غرفتي وقال بصوت مخبول:

ـ هذه غرفته؟

أراد أن يكسرها، لكن كريمة ـ وهي أقوى بنات البيت ـ منعته وهي تقول:

ـ ماذا تفعل؟ مهما كان السبب ليس من حقك أن تكسر أبواب الناس.

أراد أن يضربها، لكن الحظ كان معي حين اقترب منه بعض زبائن البيت، ودفعه واحد منهم، ثم جاءت سناء تصرخ في نصف عينيه:

ـ هذا بيت بلال.. وعليك أن تعرف أن البيت يحرسه ألف رجل مثلك وأكبر منك أيضاً..

لست أدري كيف تأتي المعجزات.. لكنها كانت من نصيبي هذه المرة أيضاً، قلت في ذات نفسي وأنا أرقص طرباً:

ـ ماذا أفعل مع هذه الرائعة؟ ماذا أعطيها؟ إنها تستحق كل وريد في جسدي وكل شريان يمر بين لحمي..

نظرتُ من ثقب المفتاح إلى الرجل الفيل، وهو يخرج من بين الرجال والنساء يلتفت شمالاً وشرقاً، لا يصدق أن الدنيا الصغيرة التي تمتّع فيها قد طردته بلا أيّ خوف ودون أي اهتمام!

فتحتُ باب غرفتي، كنت أريد أن أشكرهم، لكن كل واحد من الرجال دخل على واحدة من بنات البيت دون أيّ إحساس بوجودي!

أنقذوني من الموت، وعاقبوني بموت آخر، حتى سناء، كنت أصغي إلى هسيسها وهي تلهث تحت جرم حيواني مخبول وتقول بصوتها الذي أحبه:

ـ إنه طويل جداً، أرجوك، أنا ما زلت صغيرة.

لكن الحيوان الذي كان يلتذ بما تقول، كان يزداد سفالة ويجرح سنواتها تحت بكائي وأنا ألهث مثلها وأردد بخشوع:

ـ ماذا أفعل مع هذا البيت؟ أنا وحدي ليس لي رفيق ولا صديق وليس من أحد يعنيه أمري؟!

هي الشرارة التي أشعلتْ البقية الباقية من ضلوعي، وجعلتني أطارد حقدي وأستجير بشهوتي: أن أصل الحل المناسب لهذا الموت البطيء الذي انسل من بين قنواته وأرى نفسي في مرآته مثل جرذي محروق!

ـ ماذا أفعل وحدي وأنا دون رفيق ولا أنيس؟ إنني مجرد خادم غنيّ يملك البيت والبنات والذهب المكدس في البنوك ولا أملك ـ حتى ـ حق اعتراض بسيط وعابر!

أي انقلاب يجري إذا أقفلت البيت وطردتُ من فيه أو من لا يوافق فيه؟ إنني ربّ هذا البيت ومالكه الشرعي وأوراق الكاتب العدل ليس فيها أي لبس ولا أي خطأ؟ من الذي سيعترض على حقوقي إذا قررت هذا القرار الخطير؟

من تريد البقاء في هذا البيت، يمكنها العيش كما تشاء، لكن دون زبائن يطرقون الأبواب في آخر الليل.. ومن تريد الزواج تتزوج وتعيش في غرفتها بلا ضرائب وبلا إيجار وبلا سؤال!

هل يمكنني تمزيق هوية البيت وتمزيق إرث أمي التي جعلتْ حياتي مجرد بيع وشراء؟ أنا أخاف هذا النوع الذي يأتي من الرجال.. إنهم رجال مخابرات وأمن وشرطة وأكثر من اثنين منهم وزراء في السلطة، وأنا أضعف خلق الله رغم أموالي كلها..

كيف أقول (كلا) وماذا تعني بالنسبة لهذا الطابور المسلح من البطرين والقتلة والمخمورين!؟

* * *

هو نوع من القتل، أن أجرب قتل نفسي، أو هي ضريبة قتل أُمي: أن أقتل أعضائي بين هذه الحفنة الرهيبة من البشر..

وقفتُ عند سلالم البيت، رفعتُ جسمي مثل ممثل، وقلت بصوت قوي خائف:

ـ هذا البيت كما تعرفون، بيت أُمي، وصار بعد موتها «بيتي» وأنا حُرٌّ فيه، ولا بد أن تفهم كل واحدة منكن أن البيت ـ ومنذ اليوم ـ محرمٌ على الضيوف.. من تريد البقاء أهلاً بها، ومن ترى نفسها..

سمعت بلقيس تقول:

ـ هذا كلام فارغ، آخر زمن صار للصرصار لسان!

لكن هيفاء قالت بعدها:

ـ إنه على حق.. هو صاحب المُلك..

ضحكتْ منها إنعام وهي تقول:

ـ إنه يستحق الضرب كما كنا نفعل في الماضي.. هل صارت الكلاب تلبس البنطلون؟

صرخت بهن، وأنا أبكي في ذات نفسي:

ـ لا مكان لكِ في هذا البيت يا بلقيس، وأنتِ أيضاً يا إنعام، هذه المرة أنا الذي سأضرب الرؤوس بحذائي!

* * *

لم أكن أعرف نفسي،

هذا الذي كان يصرخ ليس (بلال) الذي عشته أكثر من عشرين سنة، إنه (رجل) آخر لم أجلس معه ولم أشرب الشاي في حضرته!

اقتربتُ من بلقيس، وسحبتها من يدها بعنف ورميتها خارج البيت، وما إن أتيت إلى إنعام حتى سمعتها تقول بخوف:

ـ أنا أعتذر يا سيد بلال.. والله العظيم أعتذر.

لكنني رغم هذا مسكتها من رسغها وطردتها خارج البيت (بحذائي) ورجعتُ أحدق في بقية البنات..

فجأة..

شعرتُ أن البيت صار بيتي فعلاً، لكن الخوف كان يمسكني من داخل أعصابي، إن ما جرى لم يكن غير (نزوة) شريرة لا عمق لها، وبعد أقل من عشر دقائق سأرى نفسي أجبن خلق الله على وجه الأرض..

قالت سناء بصوت لم يسمعه أحد غيري:

ـ هذا معقول، معقول جداً.

نظرتُ إلى جدران البيت، إلى الغرف التي ازدحمت بالحيامن وأوراق الكلينكس، تذكرت شبقي الذي انطفأ مرة واحدة في بحر سناء، وفجأة، كما في اسطبل قذر، رحت أصهل مثل حصان..

لم يكن صهيلاً، كان عواء كلبياً.. لم يكن عواء، كان بكاء بشرياً، سقطت على أرض البيت وأنا ألهث وأقول:

ـ أنا مسكين، أنا مجرم، أنا أحبكم وليس من أحد يحبني!

رأيتُ نفسي مرمياً على فراشي، ليس من أحد معي، رجعتُ بذاكرتي إلى ما جرى، لم أتذكر أيّ شيء سوى وجه سناء.. خرجتُ من غرفتي، كنتُ أريد أن أراها، لكنها ـ كما رأيت ـ تلهث تحت هيكل عربيد، وتضحك مثل امرأة شريفة وتقول:

ـ لم أعرف رجلاً مثلك سيدي الوزير..

رميت بريق عيني على غرفتها، لم أصدق هذا الصوت الذي عرفته على شاشة التلفزيون، يضحك مثل رجل شريف ويقول:

ـ أنا أيضاً لم أعرف امرأة شهية مثلك أبداً..

* * *

من أُحارب إذن، وأنا مزحوم بالحقد والشهوة معاً؟ ذهب الرجل الفيل إلى غير رجعة، لكن الوزراء ورجال الشرطة الكبار يكسرون باب البيت ليل نهار.. هل تراني أملك بعض ما يملكون حتى أمنع بنات البيت من هذا العهر العلني الذي صار ملصوقاً بعائلتي واسمي!

فجأة، وكما الرعد حين ينزل فوق الكرة الأرضية، قررت أن أقتل المزيد من البشر، حتى يستقر حال البيت وأعيش حياتي كما أريد.. إن موت وزير من الوزراء ليس مجرد موت عابر، ستحكي عنه المجلات والجرائد والتلفزيون، ومهما كان حجم الكذب والتلفيق في إذاعته، فهو «قضية» من قضايا الموسم.. موسم البيت الذي سيموت فيه (الوزير) بعد أن ماتت فيه أمي..

هذا هو الحل، أو بعض الحل، حتى يكفّ الزبائن عن دخول (بيتي) وأفعل بعدها ما أحب أن أفعل بلا منافسين وبلا وزراء!

* * *

لستُ أدري كيف تمكنت من قتلُ أُمي، ولماذا صار القتل ـ هذه المرة ـ مستحيلاً على يدي وأعصابي؟ إن من يقتل مرة واحدة يمكنه أن يقتل دائمًا.. هذا ما سمعته ذات يوم، لكنني لا أشبه خلق الله وليس من صفة بي أمتاز بها عن الكلاب والحمير إلاّ أموالي وبيتي!

إنني إذا ما عثرت على إنسان يحبني، سأعطيه كل شيء، أنا المذموم المركون في الزوايا، قلت ستنفعني دنانير أُمي وها هي كنوزها كلها في كفة لا توازيها كلمة حب واحدة.. سناء تنام معي من أجل الفلوس ولم تفتح فمها بكلمة طيبة، وبقية البنات يضحكن مني ويسخرن من هذا القرد المصنوع من الذهب والفضة!

كيف سأقتل ثانية؟ ومن الذي أختار من هذه الجوقة التي تأتي وتذهب وتبصق في وجودي؟ كل واحد منهم يستحق القتل عشر مرات بدل المرة الواحدة، لكن كيف أقتله وأين؟ وإذا اختفتْ جريمتي يوم قتلتُ أُمي من يدري أية رائحة ستكون لهذه الجريمة الثانية؟!

لكن، ليس من حلّ غير هذا: أن أقتل أكبر واحد منهم، وزير، أو أيّ مسؤول معروف، المهم أن ينتشر خبر الموت في كل مكان..

سأقول بأني مسافر إلى الجنوب، أو إلى قبر أُمي، وأذهب فعلاً، ثم، أقتل ـ حين رجوعي ـ أيّ واحد منهم قبل إعلان عودتي بساعة أو ساعتين.. عندي من النقود ما يكفي لشراء الضمائر والسكوت إذا أخطأت في خططي، ماذا تنفعني دنانير أمي إذا كنت لا أعيش كما أحلم وأنا المركون منذ طفولتي وراء الحياة بلا شهيق سوى شهيق الخوف والشبق المقتول!

لكنني بعد ليلة عاصفة ماطرة، لم أقتنع بكل فكرة طرأتْ

على رأسي، قلت لن أذهب إلى الجنوب، ولن أذهب إل قبر أمي ــ لماذا أرهق نفسي إلى هذا الحد ــ سأقتل آخر من يخرج من البيت، وإذا ما جاءت الشرطة، سترى أنه مقتول ومسروق وليس من دليل على هذا النوع من القتلة!

هــذا يكفي، أو يكفي أن يخفف من لهيب جســدي واشتعالي، وحتماً سيخفف من زيارات البعض إلى بيتي، لا سيَّما إذا كانت الجثة مزحومة بالطعنات أو.. محروقة، مثلاً!!

هذا ما جرى فعلاً، خرجت من غرفتي في آخر الليل أصغي إلى لهاث البنات.. لم تزل ثلاث غرف مضيئة حتى الآن: غرفة نورا وشيماء وماجدة.. اخترت السكين الذي تنفذ بسرعة بين طيات اللحم والثياب، وأخفيتها تحت حزامي حتى خرج الأول من غرفة ماجدة وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً، ليس إلاّ عشر دقائق وكان الثاني قد ترك غرفة نورا.. ولم تبق من غرفة (تشتغل) في بيتي سوى غرفة شيماء!

نظرتُ من ثقب المفتاح،

أريد أن أعرف شكل الضحية، لكنني لم أستطع، لم يكن ثمة صوت في الغرفة، وليس من أحد أمام ثقب المفتاح. لا بد أنه يعمل بصمت، وانتظرت ربع ساعة، لكنه لم يخرج، اقتربت من الغرفة ثانية، أريد أن أعرف ما يدور، لكنني لم أسمع أيّ لهاث أو كلام أو شهيق أو زفير..

ــ ماذا جرى؟ هل تراها تركت نور الغرفة ونامت؟

كنت أعرف أيّ نوع من النساء، هذه الشيماء التي تحب الفلوس وتشتغل أكثر من سواها حتى تأخذ حصة أكبر من المال، لكن الوقت فات وتسرب في عروق النهار، ولم يخرج الزبون من غرفتها.. ماذا جرى؟

قلت في ذات نفسي: ماذا أخسر إذا طرقتُ الباب؟ ليس من المهم قتل هذا الرجل في هذه الليلة، المهم أن أعرف ماذا يجري في غرفة شيماء وقد مرّ من الوقت ساعة ونصف دون حركة ودون كلام!

فجأة، كنت قد اكتشفت الباب مفتوحاً، ليس إلاّ حركة بسيطة وأرى ما يدور في غرفة شيماء.. وفعلاً، مددت يدي إلى أقصاها، كان صرير الباب يشبه أنين القبور، أيّ وهم يزاحم هذا الوهم، وأنا ما زلتُ أبحث عن سرّ هذه الغرفة حتى فتحتها على آخرها ورأيت!

ماذا رأيت في أحلك ساعات عمري؟

كان الرجل الفيل الذي ضربته قبل يومين مقتولاً بالسكين، والدم الملوث بالسكائر والدنانير والدخان يسري في ثقوب الغرفة، تماماً كما قتلتُ أُمي.. جرح في القلب وآخر في البطن وثالث في الرقبة!

نظرتُ إلى هذا الرجل المقتول..

لم أكن أصدق نفسي، وأنا أجلس قرب رأسه، ورغم غبائي وقلّة حيلتي، أيقنت أن هذه الجريمة ستهدم البيت كله، لكنها ستأخذني ــ أولاً ــ إلى مصير شنيع!

* * *

هرب جلدي من جسدي ومشيتُ مثل طفل لقيط أبحث عن نفسي التي ضيعوها، هكذا فجأة، آمنت أن موت أمي لم يذهب تحت الرياح، هذا مصيري ونهايتي وعقابي، وليس من السهل إنقاذ بلال من هذه اللعبة الرهيبة التي رسموها بحكمة وذكاء!

في طريقي إلى غرفتي، وقفت عند غرفة إسراء، كنت أصغي إلى حناجر هادئة ساخرة ذات جرس قذر مسموم، أعرف من قالت:

ــ لكنه مسكين.. سينام العمرُ كله في زنزانة مظلمة دون أيّ ذنب!

إنها ماجدة، ليس من هموم كبيرة، سوى انها تريد الزواج رغم هذا الزمن الطويل الذي تركته خلفها من العهر والبيع والشراء.

كانت بلقيس التي طردتها من البيت تضحك مثل عقرب يطارد عقرب:

ــ البيت لا يناسبه هذا النوع من الطراطير، إلى جهنم وبئس المصير، لقد طردني من البيت هذا القبيح البليد!

كذلك قالت إنعام:

ــ يستاهل، إنه لا يريد سوى النوم والطعام وهذا ما سيعثر عليه في السجن، لماذا نحزن على هذا الحيوان الغبي؟!

* * *

في الصباح.. لم يكن من أحد يدري، كيف نقلتُ جثة الرجل الفيل من (بيتي) إلى نهايات المحلة، ولم يكن ثمة من يصدق أن الجثة التي كانت محروقة تماماً هي جثة وكيل وزارة الصناعة الذي تعلّم على شراء اللذة بين يوم وآخر في بيت أُمي!

نظرتُ إلى وجه بلقيس ثم إلى وجه إنعام، وأيضاً رحت أُحدّق في وجه ماجدة.. صرختُ مثل مخبول:

ــ لا أريد أن أرى أية واحدة بعد اليوم.. سأهدم هذا البيت، وربما أحرقه فعلاً، لكنني لا أريد أن أرى وجوهكن مطلقاً..

نزعتُ فردة حذائي، ورحت أضرب إنعام على ظهرها، بعد دقيقة واحدة لم تكن في البيت سوى رائحة ذابلة وصرخة فقيرة ما زلت أذكرها تركتها بلقيس خلف ظهرها حين قالت:

ـ ستموت يا بلال.. ستموت يا بلال.. أنت لن تعيش سوى أيام قليلة أيها المسكين!

كانت كريمة وندى وشيماء وصباح وسناء ونورا وهيفاء يراقبن ما جرى، لم تتحرك أية واحدة منهن، وأيقنت في تلك الساعة بأنني بدأتُ أعيش بعض رجولتي، وربما سأعيش حياتي كما أريد.

* * *

في ليلة واحدة، بدأتْ ـ بالنسبة لي ـ من الساعة العاشرة حتى الثانية بعد منتصف الليل.. تعشيتُ فيها مع شيماء ورميتُ فيها بعض حرماني.. ثم شربت الخمر في غرفة نورا حتى رقصت مثل بهلوان عجوز، أعطيتها نصف آفات جسمي ونصف حيامني وثلاثة آلاف دينار!

كنت أرى في السحب السود التي تمشي فوق الزقاق نهايات ذاك الجوع الذي شوّهني.. في آخر الليل صحوت ثانية وذهبت إلى كريمة، لكنها اعتذرت، وقبل أن يسري غضبي اكتشفت ـ لأول مرة منذ ولادتي ـ أن هناك ما يمنع النساء خمسة أيام من «الخيانة» و«الدعارة» و«الحب»!

هذا ما لم أعرفه أبداً، وأنا ابن هذا الماخور وخادمه الذي نقل من كيمات العادة وأوراق الكلينكس أضعاف وزني!!

* * *

صار البيت (بيت بلال)..

لكن الزبائن لا تدري بما جرى، ولم يسأل أيّ واحد منهم عن سرّ هذا النوم المبكر.. فقد قررتُ غلق باب البيت في الثانية عشرة مهما كان نوع الزبون ومهما كانت خطورة الفريق الذي يعتاش على سمعته!

نسيتُ بلقيس وإنعام وماجدة.. لا أدري كيف نسيتهن بعد خدمة دامت أكثر من سبع سنين، وهن السبب في ثراء هذا البيت.. لكن ليلة الخميس، آخر أيام السنة، والدنيا كلها تحتفل بعام جديد، كانت تلك الليلة الماطرة آخر ليلة في حياتي، فقد طُرق الباب بعد الواحدة ليلاً.. قلت بصوت وقح:

ـ المكان مغلق ماذا تريد؟

سمعت صوتها يبكي:

ـ أنا بلقيس.. أرجوك أن تفتح الباب!

فتحت الباب..

رأيت بلقيس تغرق في ثيابها المبلّلة.. قلت لها: تعالي، هذا بيتك يا بلقيس.

قالت: أدري، إنه بيتي!

دخلتْ، نزعتْ ثيابها في غرفتي، كانت عاريةً تماماً.. اقتربتُ منها، صرت عارياً مثلها.. لكنني ما إن رميتها على سريري حتى راحت تلهث مثل دب مذبوح:

قالت:

ـ إفعل ما تشاء، لا بيتَ لي سوى هذا البيت.. حرامٌ عليك أن تطردني.. أنا التي صنعتْ هذا المكان.. بهذا!

وأشارت إلى ثغرة مثمرة بين فخذيها.. اعتذرتُ منها، آسف والله يا بلقيس، قالت بصوت مجروح:

ـ أدخل يا بلال، أدخل بسرعة.. أُريد أن أرى هل تعرف هذا الشيء حقاً؟

كان غروري يسبقني إلى موتي!

نزعت ثيابي وجلدي ومساماتي ودخلتُ في بلقيس، كانت تضحك مني، تضحك بقوة لم أفهم سرّها.

مدت يديها وراء ظهري، طوقتني بقوة ألف امرأة، كانت تصرخ:

ـ أنا بلقيس أيها الكلب، كيف تطردني من بيتي؟ شبعتُ من الحيامن القذرة والسفلس والمباهاة والكلام الفارغ والغزل الذي يشبه الخراء.. وتطردني يا بلال؟!

لم أفهم، لم أسمع، لم ألتفت إلى شيء، كنت أغرق في حرماني، أبكي هذا الوجع الذي لا ذنب لي فيه!

لكن إنعام وماجدة ـ من أين جاءتا، لا أدري ـ راحتا تضربان رأسي بأحذية مدببة وتبصقان في وجهي..

كل هذا بسيط ومعقول، لكن.. وأنا أموت، ما زلتُ أسأل نفسي: لماذا جاءت إسراء وهيفاء ونورا وسناء وصباح وشيماء وندى وكريمة، ولماذا راحت كل منهن ترقص فوق دموعي، ولماذا قتلوني بهذه السرعة وأنا أملك البيت وليس لي من وريث؟

* * *

لماذا قتلوني بهذه السرعة، أنا لا وريث لي سوى طفل سيأتي، ربما من سناء، ربما من شيماء، ربما من نورا، لكنه ـ حتمًا ـ سيأتي ويعيش دون اسمي، كما عشت أنا، وربما سيموت بهذه الطريقة نفسها، ما دام هذا البيت ـ منذ بداية الزمان ـ تعلّم أن يعيش بلا رجال؟

بغداد